كحالة وضرورة ممتدة في التاريخ السحيق ـ فضلاً عن أن الارض، أيما أرض هي بمثابة الرمز والاسطورة بالنسبة للأدب، بكل ما تنطوي عليه الميثيولوجيا من غناء وإرث، يسكن الماضي بعراقته، ليتجذر أكثر في الواقع، وبالتالي يمتد في نسيج المستقبل ـ بل كان الامر عكس ذلك تماماً حيث تجسّدت «الارض» عند الادباء العبريين كمطمح ايديولوجي للحركة الصهيونية. لأن الادب العبري شكّل في النتيجة «الحلبة التي تتجلى فوقها صراعات السلطة حيث تخاطب الجماعات السياسية المتعارضة داخل الصهيونية بعضها، مستخدمة الرأي العام كميدان اختبار للاتجاهات الجديدة»[٢]

ومنذ بدايات الاستيطان الصهيوني في فلسطين، في العقد الاول من القرن الحالي، ظهرت أصوات انشقاقية داخل الساحة الادبية العبرية، اختلفت مع الرؤية الصهيونية. مثلها بداية، برينر الذي أعلن شكوكه السياسية والشخصية في المشروع الصهيوني، أعقبه، في العشرينات من هذا القرن، جماعة مارتن بوبر، وكانت تسمى «جماعة السلام» التي فشلت فشلاً ذريعاً لعدم قدرتها على اقناع اليهود والعرب على السواء، على الانخراط في صفوفها. إذ ذاك، وفي الفترة عينها التي ترافقت مع صعود الفاشية في اوروبا، ظهرت اتجاهات فاشية موازية في الادب العبري، وعبر عنها آبا خيمير في صحيفة «يوميات فاشي اسرائيل». وقد وصف حاييم وايزمن يهود اوروبا وصنّفهم على انهم «غبار انساني».

وعبر سنوات طويلة حافظ الادب العبري في تناوله لقضايا المجتمع والقضايا السياسية، على خط مواز تماماً لاهداف وطروحات الحركة الصهيونية. ففي العام ١٩٤٨، مثلاً، مجّد الادبي انتصارات الحركة الصهيونية ممثلة بـ «استقلال الدولة». وعكس كذلك، نزعة شوفينية، عنصرية، ضد ما هو فلسطيني على أرض فلسطين، وكمخرج من مواجهة الذات، وتعبيراً عن حالة الالغاء، التي طمحت الصهيونية الى تحقيقها، برزت، تسمية الفلسطيني في الطروحات الادبية والسياسية آنذاك، بـ «العربي» الذي أخذت تلصق به كل الصفات القبيحة السوداء، بينما اليهودي خارق في كل شيء، حتى في عذابه وتقمصه دور الضحية، مثلما هو خارق، كذلك، في بطولاته متميّز في جنسه، وتحضره. وكل ذلك كان تعبيراً عن محاولة ايجاد، أو البحث عن معادل موضوعي ونفسي لمأزق الذات الصهيونية في الحياة.

وفي حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧، كان الادب العبري حاضراً في هجومه اللاذع على العربي، في مقابل تمجيد انتصارات الدولة العبرية، وفرادتها، والبكاء على ضحاياها. لكنه حمل، في ثناياه، أزماته المتعددة بالنسبة للهوية والذات والآخر. انه لا يريد ان يرى هذه الازمات تفضي في النتيجة الى رؤية الضحية الحقيقية في مسألة الصراع الفلسطيني ـ الاسرائيلي، كما أن العكس صحيح أيضاً فان نظرة الادب الى الضحية بشكل عقلاني كانت كافية بأن تعري الازمات الداخلية للمجتمع الاسرائيلي وتبعثها الى السطح.

وهكذا لم يتسنّ لأصوات الاحتجاج في هذه المرحلة ان تشكّل الملامح الخاصة بها وتنفرد بصوتها الخاص، لأنها هربت، أساساً، بخطابها الاحتجاجي الى الداخل الى الاسرائيلي نفسه، محاولة الحفاظ على مكتسباته وفرادته التي حققها بشتى الوسائل وأولها الحرب والقوة، وبمعنى ما، كانت أصوات الاحتجاج وجهاً آخر من وجوه بكاء داخلي للاسرائيلي المنتصر على الضحية المهزومة.

ومع الاجتياح الاسرائيلي للبنان في حزيران (يونيو) ١٩٨٢، ظهرت البدايات الاولى للاحتجاج الادبي الانساني عبر القصائد الشعرية والقصص والروايات العبرية، حين عجزت المؤسسات السياسية والعسكرية عن اقناع الاسرائيليين بمبررات الحرب وضرورتها، خصوصاً وان أيّاً من اهدافها المعلنة لم يتحقق وأولها هدف تأمين «سلامة الجليل».